شبكات التواصل الاجتماعي للشباب والفضاءات الجديدة لصناعة الصورة العنيفة

الدكتور: فريد الصغيري

جامعة قفصة، تونس

الملخص

تعتبر الشبكات الاجتماعية الالكترونية فضاء مفتوحا للجميع، بقطع النظر عن أية اختلافات ثقافية أو اجتماعية، ولكن الكفاءة التفاعلية لهذه المنابر الافتراضية تحتم اليوم مراجعة حقيقية لعلاقة الشباب بأشكال الصور الرقمية المصنعة عبر هذه الشبكات كمجال جديد للتفاعل الاجتماعي والثقافي، نظرا لأن الاستخدامات الاتصالية التي أضحت قائمة اليوم بين الشباب والصورة الرقمية تحيل إلى واقع يتجه شيئا فشيئا إلى التسامح و القبول بالكم الكبير من المؤثرات الخطرة و مشاهد الإباحية والعنف متعدد الأبعاد.

Résumé :

Les réseaux sociaux sont un espace électronique ouvert à tous, quelles que soient les différences culturelles ou sociales, Mais l'efficacité interactive pour ces plates-formes par défaut nécessite aujourd'hui un véritable examen actuel des relations des jeunes avec ces formes d'images qui peuvent aujourd'hui se déplacer lentement à la tolérance et à l'acceptation du grand volume des effets et des scènes de pornographie et de la violence multidimensionnelle dangereux.

مقدمة :

تعتبر الشبكات الاجتماعية الالكترونية فضاء مفتوحا للجميع، بقطع النظر عن أية اختلافات ثقافية أو اجتماعية، على أساس الجنس أو اللغة، أو المعتقد أو العرق. لذلك أصبحت خدمات هذه الشبكات من أبرز الوجهات الثقافية والترفيهية المستقطبة للشباب في ممارساته الافتراضية عبر شبكة الانترنت، نظرا لأن هذه المواقع الاجتماعية الجديدة تؤمن لهذه الفئة ساحات حوار مباشرة لطرح أفكارهم و مناقشة قضاياهم دون رقابة مسبقة على محتوياتها، من خلال توفير مجموعة من الخدمات، مثل المحادثة الحينية، و البريد الالكتروني، وتبادل الصور ومقاطع الفيديو. الأمر الذي أحدث تغييرات هامة في كيفية الاتصال والتواصل والمشاركة بين الأشخاص.

ولكن الكفاءة التفاعلية لهذه المنابر الافتراضية تحتم اليوم مراجعة حقيقية لعلاقة الشباب بأشكال الصور الرقمية المصنعة عبر هذه الشبكات كمجال جديد للتفاعل الاجتماعي والثقافي وذلك باعتبار أن الفئات الشبابية هي الأقرب إلى التفاعل مع نسيج الصور المتداولة في الفضاء الافتراضي وأقدر من غيرها على استبطان التأثيرات والرسائل المختلفة لهذه الصور الوهمية والمتخيلة للذوات والأشياء التي تتباعد في أغلب الحالات عن نظائرها الحقيقية في العالم الواقعي تحت تأثير التجسيد الاستعراضي القوي للشخصيات والأبطال والنجوم وكثافة المشاهد المعروضة عبر الشاشات.

إن الروابط الثقافية و الترفيهية التي أضحت قائمة اليوم بين الشباب كشريحة اجتماعية و بين الصورة الرقمية المتداولة عبر شبكات التواصل الاجتماعي، تحيل إلى علاقات تتعمق باستمرار وتتحول شيئا فشيئا إلى نوع مستحدث من الحاجات الاجتماعية التي أصبحت تتحكم في علاقات الشباب بحجم الصور المتدفقة عبر شاشات الحواسيب، التي تحولت عبر محتوياتها الدلالية وأنماطها التفاعلية إلى أدوات اتصالية عالية التأثير، ووسائط حوارية ممتدة و حاضرة في المشهد الثقافي اليومي للأفراد والجماعات.

تعتبر الصورة في معانيها ودلالاتها المتشعبة وحدة اتصالية هامة في علاقتها بجمهورها المستخدم، وذلك بالنظر إلى ما توفره من فاعلية وتشويق وجاذبية و إثارة في مستوى موادها الإخبارية و مضامينها الثقافية التي تقدمها. حيث تتجه الاستخدامات الاتصالية التي أضحت قائمة اليوم بين الشباب و الصورة الرقمية شيئا فشيئا إلى التسامح و القبول بالكم الكبير من المؤثرات الخطرة و مشاهد الإباحية و العنف متعدد الأبعاد.

لقد ارتبطت شبكات التواصل الاجتماعي لدى كثير من مستخدميها بمشاهدة الصور المختلفة، حيث تقود موادها المصورة إلى تشكيل ارتسامات ثقافية متنوعة، تمكن جمهور المشاهدين من آليات جديدة للتفكير والتفاعل الاجتماعي من خلال الأشكال و الإرشادات و الأصوات والألوان والحركات، بما يتيح لهم فرص تشكيل المواقف و تكوين الصور الذهنية عن المنشود والمحبذ و المفضل من هذه الصور الجاهزة.

فبأي وعي يستشعر الشباب المستخدم لشبكات التواصل الاجتماعي في مجتمعاتنا المحلية هذا الانزياح في دور هذه الشبكات من فضاءات للتقارب والتواصل الاجتماعي إلى بيئات رسومية افتراضية تشتغل على عنف الصورة وإغرائها في إطار ثقافة بصرية عابرة للقوميات والمسافات؟

وإلى أي مدى يمكن أن تشكل الصورة الرقمية المنتشرة عبر شبكات التواصل الاجتماعي للشباب تهديدا للمفاهيم والقيم الثقافية الأصيلة التي تعد مراعاتها شرطا ضروريا لتحقيق التواصل والتفاعل والترابط الاجتماعي ؟

وبناء على ذلك عمدنا إلى تفكيك هذا النسق الإشكالي إلى العناصر التحليلية التالية كمجالات رئيسية يتحرك في إطارها موضوع هذا البحث:

- المشاركة الشبابية الالكترونية، حقيقة التواصل الاجتماعي وتشكلات عنف جديد.
- انتشار الصورة الرقمية وعلاقتها بالواقع الاجتماعي للشباب.

- الصور العنيفة المصنعة وسيلة للإثارة والترفيه
- مخاطر الشبكات الاجتماعية وخصائص الصور العنيفة.

1 المشاركة الشبابية الإلكترونية حقيقة التواصل الإجتماعي وتشكلات عنف جديد :

تعتبر الجماعات الحوارية والشبكات الاجتماعية المختلفة كشبكتي الفيسبوك "Face book" واليوتوب "YouTube"، ساحات جديدة للتفاعلات والتجاذبات بين القيم الأصلية في المجتمع والقيم الوافدة، التي ظهرت نتيجة لظهور أشكال ومنافذ مستحدثة للتواصل بين الشباب. لذلك فإنه من المهم تقييم عمليات الاستفادة الشبابية من هذه الشبكات، من حيث أنماط التواصل المحققة بينهم كمستخدمين، وأشكال العنف الجديدة التي تهدد الهوية الثقافية، والمكتسبات الاجتماعية للأفراد والجماعات في ظل النجاح الباهر والاستقطاب الجماهيري الكبير الذي حققته مواقع التواصل الإلكتروني العديدة.

1-1 الشبكات الاجتماعية، تقييم التواصل الاجتماعي والكفاءة التفاعلية:

يعمل الفضاء السيبرني "Cyberspace" من خلال شبكات التواصل الاجتماعي المختلفة لجمهور المستخدمين والأعضاء الافتراضيين على بناء تفاعلات بشرية آلية، تسمح للعقول الإنسانية والحاسوبية بالانطلاق الحركي المتواصل ضمن آليات تفاعلية، تتيح إمكان التفاعل النصي وربما الصوتي والرسومي آنيّا لتمكين الأفراد المشاركين من لعب أدوارهم التفاعلية المتوقعة، ولكن وفق صورة الإتاحة الرقمية بمواصفات الفضاء السيبرني المختلفة. وفي هذا الصدد، يرى إرفينغ قوفمان "Erving Goffman"، أن التفاعلات البشرية تحدث بطريقة تعتمد على توقعات شرطية حسب حالة أو ظرف التفاعل " Situational expectations"، وهي تؤثر في عمليات التواصل الرقمي، وتحدد مستويات التفاعل الاجتماعي والأدوار التي يقتضيها اتصالنا الرمزي بالآخرين[1].

إن كثافة العمليات الاتصالية الشبابية عبر الشبكات الاجتماعية، وتنوع خدماتها التي يقبل عليها الملايين من المستخدمين حول العالم، ليست كافية لتقدم صورة كاملة وواضحة لحجم التواصل الحقيقي المتحصل عليه من خلال هذه الممارسات. لذلك فإن الكفاءة التفاعلية في إطار هذه المنابر الإفتراضية، ونوافذ التخاطب الحيني، وحلقات الحوار، أو غرف الدردشة " Chating" عبر هذه الشبكات، تحتم مراعاة جدّية للتبعات الاجتماعية والثقافية لهذا التواصل المفتوح مع الآخر.

إن حرية التصرف في الهوية الشخصية وانتشار الأسماء المستعارة بين المستخدمين، تعتبر من أبرز السمات الرئيسية لتحرّر لغة التخاطب الإلكتروني، الذي يتضمن جملا متوسطة وقصيرة لا يراعى فيها الانضباط إلى قواعد النحو، أو الصرف، وصحة التراكيب. إذ يحتوي النص على كلمات لا تحمل أي دلالة لغوية، تحيله إلى نوع من التركيب العبثي للألفاظ والمفردات، لا يؤدي إلى معنى محدّد ولا يرمز إلى فكرة معينة مما ينتج عنه ضمور الدلالة اللغوية لفائدة سياق التخاطب، أو ما يمكن تسميته بالدلالة السياقية، التي تسمح للمتحدث أن يستعمل رموزا وأشكالا معلوماتية إلى جانب ألفاظ النص الذي يدونه.

يمكن لنصوص المحادثات الإلكترونية المسجلة بين الشباب وشخصيات العالم الافتراضي انطلاقا من الفضاءات الاتصالية الجديدة، أن تكون مؤشرات دالة على مستوى الكفاءة الحوارية التفاعلية، التي تنشأ بين هؤلاء المستخدمين، وذلك في إطار الوضعيات المختلفة لاستخدام تقنيات التراسل والحوار، في ظل الانتشار الكبير لفضاءات المحادثة والتخاطب الحيني، إذ تشكل أغلب الشبكات الاجتماعية بالنسبة لمستخدميها مساحات تفاعلية حميمة للتحاور وتبادل الآراء والتصعيد، الأمر الذي فسح المجال حرا للتخاطب وتبادل الأفكار والتجارب الشخصية، ولكن جملة هذه التفاعلات الإلكترونية قد لا تستجيب في معظمها لضوابط الحوار السليم المنهجي، المستند إلى لغة حوارية راقية. بمعنى أن الأبعاد التفاعلية لعمليات كتابة وصياغة أراء وأحاديث المتحاورين لم تتمكن من ضبط

المضمون الحواري والوقوف دون تزايد حجم الألفاظ البذيئة والكلمات الرديئة المنتشرة في كثير من الحوارات ونصوص الدردشة رغم تعدّد الإجراءات التقنية المتبعة للتعامل مع من يخترقون اللوائح والإرشادات الموضوعة من أجل حفظ النظام وجودة العمل والتفاعل المفيد بين المشاركين على اختلاف أصنافهم.

2-1 تقييم مخاطر الشبكات الاجتماعية الإلكترونية :

على الرغم من الانتشار السريع للشبكات الاجتماعية الإلكترونية وتحولها إلى مساحات حرة للتعبير بالنسبة للأفراد والجماعات، فإن هناك بعض المحاذير التي لابد من أخذها بعين الاعتبار لأن الحرية التي توفرها هذه المواقع مطلوبة وتجب المحافظة عليها، ولكن في نفس الوقت لابد من إدراك تبعات وعواقب ما ينشر يوميا عبر صفحات هذه الشبكات، التي يتفاوت حجم ما تعرضه من محتويات ثقافية وفكرية وترفيهية بين التناول الجاد والهادف للقضايا والشواغل الحقيقية للشباب، وبين تكريس لممارسات اتصالية عبثية غير مجدية، تعتمد التكرار المبتذل والممل لأشكال عنيفة وغير سوية من الترفيه.

وهو ما يحيلنا على تأثيرات هذا الاستهلاك الشبابي المتنامي لما تروجه هذه الفضاءات الحوارية من مغالطات وعنف واستهداف لتنوع الثقافات ونسبيتها وذلك بسبب هيمنة هذه المواقع على المشهد الاتصالي اليومي للأفراد من خلال إسقاطها لحدود الزمان والمكان والخصوصية الثقافية للمجتمعات. حيث تطرق "برهان غليون " إلى هذا اللاتكافؤ الشامل الذي خلفته وتخلفه العولمة المدعمة بالتكنولوجيا، انطلاقا من التأثيرات الاجتماعية الكبيرة لهذه الشبكات وتهديدها لنقاء العلاقات بين الأفراد والهوية الثقافية بقوله " من الصحيح إذن أن العولمة الثقافية المرتبطة بثورة المعلومات والاتصالات، في الوقت نفسه الذي تتيح التحرّر المتزايد لجزء من البشرية تعمل على سيطرة فئة من المجتمعات على فئة أخرى، ومجموعة من النخب الخاصة على المجتمعات الكبرى [(2)].

2 . انتشار الصور الرقمية و علاقتها بالواقع الاجتماعي للشباب:

إن تحليل علاقة الشباب بالصورة الرقمية كمجال جديد للتفاعل الاجتماعي و الثقافي، لابد أن يعود في مفاهيمه و مناهجه في التشخيص و الاستدلال و الاستنتاج إلى جملة الخصائص الاتصالية لهذه الفئة بصفتها حاملة لمضامين التغيير، مسكونة بهواجس تنمية الواقع، طموحة لفعل الإصلاح و التحديث، و هو ما يجعل من هذه الفئات أقرب إلى التفاعل مع أشكال الصور المتداولة في الفضاء الافتراضي و أقدر على استبطان التأثيرات والرسائل المختلفة لهذه الصور، تحريرا للخيال و التفكير و إرضاء للأحلام الشبابية الناشئة.

الأمر الذي قد يثير لديها انفعالات نرجسية تقودها إلى نوع من الانفعالات المطلقة، حينما تتباعد الصور الوهمية و المتخيلة، للذوات و الأشياء عن صورها الحقيقية في العالم الواقعي، و ذلك تحت تأثير التجسيد الاستعراضي بالغ القوة للشخصيات و الأبطال والنجوم، و كثافة المشاهد المعروضة عبر الشاشات.

إن الروابط الثقافية و الترفيهية التي أضحت قائمة اليوم بين الشباب كشريحة اجتماعية و بين الصورة الرقمية المتداولة عبر الوسائط الحديثة لتكنولوجيات المعلومات و الاتصال، تحيل إلى علاقات تتعمق باستمرار وتتحول شيئا فشيئا إلى نوع من الحاجات الاجتماعية التي تتحكم في علاقات الشباب بحجم الصور المتدفقة عبر شاشات الحواسيب، التي تحولت عبر مخزونها الدلالي وأنماطها التفاعلية إلى أدوات اتصالية عالية التأثير، ووسائط حوارية ممتدة و حاضرة في المشهد الثقافي اليومي للأفراد والجماعات.

فالصورة في معناها الواسع ودلالاتها المتشعبة، تبدو وحدة اتصالية هامة في علاقتها بجمهورها المستخدم، وذلك بالنظر إلى ما توفره من فاعلية وتشويق وجاذبية و إثارة في مستوى موادها الإخبارية، و مضامينها الثقافية التي تقدمها،

الأمر الذي عزز وظيفتها كشاهد عيان لما يجري من أحداث، و ما يتداول من أفكار و وجهات نظر مختلفة.

إن واقع الانفتاح الثقافي و الاجتماعي الذي تمثله شبكة الانترنت في علاقتها بمستخدميها يمكن أن يلخص في سلسلة الاندماجات المتدفقة دون انقطاع من الصور المتخمة بالدلالات والمترعة بالرموز، التي تخفي كل هوية فكرية لمن ينتجها و يسوقها، وهو ما يفسح المجال أمام جمهور المشاهدين لملء تلك الفراغات البصرية الحاصلة في خيالهم انطلاقا مما يشاهدونه بقصد أو بغير قصد عبر شاشات الحواسيب و واجهات الاستخدام الرقمية.

إن الروابط الترفيهية و الثقافية التي أضحت قائمة اليوم بين الشباب و الصورة الرقمية، تحيل إلى واقع يتجه شيئا فشيئا إلى التسامح و القبول بالكم الكبير من المؤثرات الخطرة و مشاهد الإباحية و العنف، و صور الإثارة والعري، حيث تحولت هذه المتع المتخيلة القائمة على الانصهار والاندماج في ما هو وهمي و خيالي وافتراضي في علاقتنا بالصورة، إلى مواضيع إشكالية و شواغل فكرية لعديد البحوث في العلوم الإنسانية و النفسية التحليلية، وذلك بهدف رصد حجم التداعيات و التأثيرات على تفاعلات الأفراد في المجتمع إزاء مظاهر العنف في الصور المتدفقة، التي أدت إلى حدوث أنواع جديدة من الاضطرابات السلوكية مثلما بينها "مايكل ستوراً" "من خلال فكرته المتعلقة "بمرصد العوالم الرقمية في العلوم الإنسانية[3] .

و هي فكرة أثبت من خلالها بالتعاون مع الباحث النفسي "سارج تيسرون " وآخرون علاقة التكنولوجيات الجديدة للاتصال بالانحرافات السلوكية لفئات الشباب في إطار عالم من التهويم و الخيال، و واقع شبيه بأحلام اليقظة قد يؤدي إلى انخفاض القدرة على التفكير لدى الأفراد مما يحيل أنشطتهم العقلية إلى أشكال من ردود الفعل الآلية و اللاإرادية التي تزيد من عزلتهم و تبعدهم عن مسؤوليات انتمائهم إلى عالم المجتمع الواقعي[4].

لقد ارتبطت شبكة الأنترنات لدى كثير من مستخدميها بمشاهدة الصور المختلفة، حيث تقود موادها المصورة إلى تشكيل ارتسامات ثقافية متنوعة، تمكن جمهور المشاهدين من آليات جديدة للتفكير من خلال الأشكال و الإرشادات و الأصوات و الألوان والحركات، بما يتيح لهم فرص تشكيل المواقف و تكوين الصور الذهنية عن المنشود والمحبذ و المفضل من هذه الصور الجاهزة.

وهو ما يدلل على حجم الإمكانيات التقنية التي توفرت لأجهزة الحواسيب في عمليات نقل و تصنيع الصور التي تجاوزت الخيال الفوتوغرافي في تقنياته البسيطة، وقدرته المحدودة على التخيل و التسجيل الحي للواقع، في اتجاه خلق مساحات بصرية مصنعة تختلف جذريا عن تلك الخصائص المميزة للسينما و التلفيزيون في وسائطه وتقنياته التي أصبحت تقليدية بالنسبة لمجتمعنا الإلكتروني الراهن."فالتطور التقني للشبكات و البرمجيات قد أعطى للصورة قدرة فائقة على التشكل بهيئات مختلفة، وكل هيأة تعطي معنى خاصا و دلالة معينة... إن الصورة قبل أن تكون مخادعة هي بالدرجة الأولى صادمة و نافذة إلى المساحات المنسية والزوايا المجهولة[5]."

لقد سجلت الصورة حضورا فاعلا في زمن الاتصال الافتراضي، و تدخلت في جميع جوانب الحياة نظرا لارتباطها بثقافة الاستهلاك و بحركة الانفعالات و التخيل و كل الجوانب المهمة و المؤثرة في حياة الإنسان. فالشاب أو الطفل يرى العالم من حوله قبل أن يتكلم، "فهو يرى العالم كصورة و يفكر فيه كصورة، و يتعامل مع المحيطين به كصورة... و من ثمة تكون الصورة وسيلة للتعلم و التفاعل مع الآخرين عن طريق الإدراك أولا قبل أن يصل إلى النطق و الكلام[6] ."

و تستدعي عملية التفكير في هذا المستوى التساؤل حول علاقة الصورة بالدوافع و الشواغل الاجتماعية للشباب، ولكن قبل ذلك يجدر بنا أن نبحث في مدى تعبير الصورة الرقمية عما يحدث حقيقة في الواقع و ما هي جملة العوامل المباشرة التي تستمد منها الصورة قدرتها على الانتشار في الفضاء الاتصالي و

الثقافي للأفراد و الجماعات،ذلك أنه من العسير اليوم أن نميز بين الحقيقة و الزيف، و بين ما هو مادي و واقعي و ما هو افتراضي و وهمي، لأننا إزاء عالم من الصور المتخيلة و المختلفة و الوهمية التي تنتشر عبر الشاشات ووسائط الإعلام و الاتصال، مثلما عبر عن ذلك عبد الله بلقزيز بمفهوم "سيطرة النظام السمعي البصري[7] وهو النظام المتمثل اليوم في أنشطة عشرات الإمبراطوريات الإعلامية التي تنشر ملايين الصور يوميا، فيستقبلها مئات الملايين من المتقبلين حول العالم.

إن انتظام عملية المشاهدة يمكن أن يرسخ في ذهن الشاب حقيقة مزدوجة للصور العنيفة بين الافتراضي الوهمي و الاجتماعي الواقعي، مفادها أن الافتراضي الوهمي قد أضاف أشياء كثيرة بالنسبة إلى الدلالات الاجتماعية و الثقافية للصورة العنيفة مقارنة بما هو مستنسخ مباشرة من الواقع، و ذلك حتى تكون أكثر عنفا وأشد تأثيرا من خلال قدرتها على الفتك الفكري، و كفاءتها في تصنيع الرعب و الترغيب في محاكاته، و اعتماده منهجا للحوار و أسلوبا في التأثير، فزيف الصورة إذن و قدرتها على ممارسة التحريف، يمثلان معا عاملا مهما من عوامل انتشارها في الفضاء الافتراضي، و اختراقها لكل مجالات الحياة الإنسانية، بشكل يصعب إيقافه، لأنها قوة جديدة تعمل من خلال مضامينها الثقافية على إيجاد مواصفات جديدة لتسويق موادها الترفيهية المصورة، دون إحساس حقيقي لدى مستهلكيها بحجم العدوان و مقدار الإنتهاكات الحاصلة للفكر والضمير الحر.

إن إقبال الشباب على الصورة الرقمية و سعيه إلى الاندماج مع وقائعها الوهمية و المتخيلة لا يمكن النظر إليه خارج السياقات الاجتماعية و الثقافية التي تحكم عمليات استخدام هذه الفئة لمحتويات هذه الصورة، وتصنيع منهجية قراءتها و تأويلها لما وراء المشهد، انطلاقا من المقاصد الخفية و المعلنة لمتابعة تفاصيله و استهلاك منتجاته البصرية المتنوعة. وهو موقف قد يخفي تشخيصا ايجابيا للحضور الاجتماعي للصورة، و ارتباطها بكل جوانب حياة الإنسان، حيث تضغط الصور و تتناسخ و تؤثر و تهيمن، و لكنها تبقى في النهاية مادة حقيقية تختزن في داخلها

المحسوسات الواقعية و الخيالية معا، لتكون ملاذا للتعبير الحر عن مكامن الذات و تفاعلاتها من خلال ما توفره هذه الصورة من طاقة إبهارية و لذة مشهدية متجددة، تتفوق على بلاغة الكلمات، لتمنح لمشاهديها الشباب، إمكانيات جديدة للتعبير و التحليل للمواقف الشخصية و الحالات النفسية.

و لعل من أهم دوافع مشاهدة الشباب للصورة الرقمية، و انفتاحه على آليات استخدامها المختلفة، اضطلاعها بوظيفة الترفيه و الترويح، كشاغل اجتماعي أساسي، يبرر واقع انفتاح الشباب على المجتمع الافتراضي للصورة في ارتباطه الوثيق بالظرفي و العابر "l'éphémère".

حيث تتحول الممارسات الثقافية الافتراضية في علاقتها بالصورة إلى صيغ ترفيهية متشابكة، تهدف إلى تحقيق المتعة و التسلية و الانتشاء النفسي و البدني. و هو ما يحيلنا إلى هيمنة صناعة الصور على الممارسة الثقافية، وخطورة ما تحدثه من تحولات في الرؤى و القيم و العادات خصوصا لدى الفئات الشبابية، حيث تشارك الصورة بفعالية في توجيه الأفكار و بناء الحقائق، و إنتاج الشواغل و الهواجس الجديدة، الأمر الذي لا يتيح للمتلقي فرص التفكير المستقل خارج مجال تدفق الصور و سريان رموزها، و هو ما يؤدي إلى حالة من ازدراء الواقع ورفضه، واستهداف مخزون القيم الذي يجمع بين الأفراد، و يظهر ذلك أساسا في الوقائع المتخيلة، التي تفرضها الصور الترفيهية "التي لا تكتفي بإظهار ما هو مرئي، بل تدخل ضمن لعبة التوتر الدلالي الذي تفرضه متعة و لذة القراءة، و تتورط في صراع المعنى، بحيث تصبح جزء لا يتجزأ من عملية الهدم و البناء و الصياغة[8]. "

3. الصورة العنيفة المصنعة وسيلة للإثارة والترفيه:

على خلاف ما ذهبت إليه عديد الدراسات النفسية في تحليل انعكاسات الصور العنيفة وتبعاتها على التوازن العاطفي والسلوكي للفرد، تشهد الشاشات المختلفة للوسائط الإلكترونية تسابقا ملحوظا في تداول وعرض الصور العنيفة، وذلك قد يعود إلى أسباب عديدة لعل من أبرزها قدرة الصورة الرقمية الحديثة

على التجسيد والتشخيص بما يفوق بكثير القدرات المحدودة للجسد البشري، والتقاء قدرتها على التخيل وتجاوز العالم الواقعي بجاذبية الأحلام والرغبات التي تميز عالم الطفولة والشباب، والتوق نحو الإنعتاق والتحرّر من قيود المجتمع الأخلاقية وموضوعية عالم الكبار.

ومن أهم الأسباب التي تجعل من عنف الصورة وسيلة لتحقيق اللذة والمتعة، وسبيلا لبلوغ الإثارة والتشويق، في إطار تزايد البحث عن سبل جديدة للترفيه تكون أكثر إثارة وغرابة وأوسع انتشارا وتسويقا، عدم قدرة العديد من الأشخاص على إيجاد تفسيرات مقنعة لما تعرضوا له من عنف في المعاملة أثناء تعلمهم، أو وقوعهم ضحية سلوكات ومواقف عائلية أو اجتماعية مستهجنة في ماضي حياتهم، مما يجعلهم أكثر تقبلا لمشاهدة وإعادة مشاهدة الصور العنيفة، كشكل من أشكال البحث النفسي للوصول إلي مبررات ذلك العنف تعبيرا منهم عن رفضه، ورغبة في الوقت ذاته في خلق نوع من التغيير والتبديل للواقع الرتيب لحياتهم[9].

كما يمكن أن تنجح الصورة العنيفة في أن تتحول بالنسبة لمتابعيها ومريديها إلى منهج قويم للاهتداء ونموذج منشود جدير بالإتباع والإقتداء، خصوصا إذا تحول الترفيه إلى مطلب جماعي، وهدف مشترك يجمع بين أفراد الجماعة، يقوم على التقليد الفردي لنواميسها وسلوكياتها [10].

إن اكتظاظ الصورة الرقمية بعناصر العنف وإيحاءاته المثيرة، وازدحام الفضاء الافتراضي بالشخصيات الافتراضية " avatars " اللاسوية، التي تتشكل وتتفاعل وفق أنظمة رمزية لاواعية، قد أصبحت حقيقة ترتد وتقفز خارج حدود الواقع، يتم استنتاجها باستمرار في أفلام الجريمة، وحركة نجومها وقصص البطولة المستمدة من الحروب والأزمات الاجتماعية المختلفة.

وعلى غرار ما يعرف بأدب الجريمة الذي تناول بالشرح والتحليل أصناف الجرائم وحياة المجرمين ودوافعهم النفسية والاجتماعية للعنف والإجرام، ظهرت

أجيال سينمائية من المؤلفين والمخرجين والتقنيين المحترفين، أدخلت العنف المصور إلى الصناعة السينمائية، وبالتالي تحويله إلى موضوع شيق للإبداع بأدوات الصورة وتقنياتها، التي أمكن لها أن تتجاوز حدود المحاكاة الباهتة لمشاهد العنف التشخيصية الواقعية، إلى مناظر وبنيات مشهدية لا حدود للخيال فيها، من حيث اعتمادها المفرط على البشاعة الدموية.

ومن هنا ساهم هذا التوظيف العنيف للصورة عبر الخطابات الثقافية لأفلام الفيديو والسينما وشيكات التواصل الاجتماعي في تفعيل توظيف جديد في علاقة المستخدمين الشباب بهذه المواد. وهو التوظيف الترفيهي لعنف المشهد وتحويل الصورة العنيفة – التي تتغير معاييرنا في تقييم درجة عنفها بصورة مستمرة – إلى ملهاة تقوم على " تسلسل لا متناه للصورة "Filiations d'images" لا يكتفي بإظهار المشهد المرئي، بل يدخل في تشكيل الوعي والوجدان والذوق والسلوك الترفيهي[11]"، وذلك بهدف التلذذ بمشاهد العنف والانحطاط الأخلاقي والقيم السوقية المبتذلة.

تعتمد الصورة عبر وسائط تداولها المختلفة على دلالة البعد البصري كمكون رئيسي وأساسي مما أدى إلى تقليص استخدام الكلمة والجملة إلى حدودها الدنيا، وهذا البديل التشكيلي والبصري يقوم بعملية تعضيد للمعنى المقصود من خلال المغالطة وتصنيع الحقيقة عبر استغلال تقنيات فنية تتوفر على مقدرة فائقة في ممارسة التحريف والتزييف مثل تقنية " الفوتومونتاج[12]" التي يمكن من خلالها إنتاج حقائق مرئية جديدة، وإكساب الصورة خصائص عرض مغايرة لما هو موجود في الواقع حتى أصبحنا في خشية من أن تتحول معظم الصور– التي تعترضنا في حياتنا اليومية، وتكون فهمنا وإدراكنا للعالم من حولنا– إلى صور مخلقة ومعالجة بالتقنية الرقمية، تخضع إلى عمليات القص والتركيب والتعديل.

فالاستهلاك المكثف للصورة يمكن أن يكون مثيرا للمشاعر العدوانية والإنفعالات النرجسية، التي يتدعم حضورها أكثر عندما يتباعد الفرد عن صورته الحقيقية، ويحيل ذاته إلى أنا متخيل متوهم، يستعير مشروعية وجوده من صور

الأبطال ونماذج السلوك، والشخصيات المعروضة في المرئيات، وخاصة عندما تجسد غالبية هذه الصور وقائع مصنعة تبالغ في استعراض القوة، وتسرف في تمرير مشاهد الإثارة والعري والرعب والتلاعب بقيم الحياة والموت.

تمارس الصورة من خلال الوسائط الجديدة للإعلام والإتصال تأثيرا واسعا على جمهور المشاهدين على اختلاف فئاتهم وانتماءاتهم الاجتماعية والثقافية، وهي من هذا المنطلق تعبر عن ثقافة المجتمعات المعاصرة، وتؤسس لمداخل إشكالية جديدة في علاقتها بالنماذج الثقافية التي يعمل مروجو الصورة على تصديرها إلى مجتمع المستهلكين، لأن القيم الثقافية بالمعنى الاجتماعي هي نتاج ضمير المجتمع ووجدانه، بما في ذلك الضوابط العريضة المنظمة لسلوك الأفراد وتفاعلاتهم.

فإلى أي مدى يمكن أن تشكل الصورة الرقمية تهديدا للمفاهيم والقيم الثقافية الأصيلة التي تعد مراعاتها شرطا ضروريا لتحقيق التواصل والتفاعل والترابط الاجتماعي ؟

إننا إزاء عالم افتراضي تسبح في فلكه الصور الرقمية المعدّلة والمصوّبة في اتجاهات مختلفة، تؤثر من خلال وسائطها المرئية على ثقافة الشباب و مجموع القيم الثقافية التي تتأسس عليها هذه الثقافة، مما سيسمح ببروز مفاهيم وقيم وقناعات ومواقف وسلوكيات إنسانية مشتركة وعابرة لكل المناطق الحضارية والثقافية.

لذلك فإن الهدف النهائي لما بات يعرف " بالعولمة الثقافية[13] " هو ليس خلق ثقافة عالمية واحدة بل خلق عالم بلا حدود ثقافية، ينتقل فيه اهتمام الإنسان ووعيه من المجال المحلي إلى المجال العالمي ومن المحيط الداخلي إلى المحيط الخارجي. ففي ظل العولمة الثقافية تبلغ البشرية مرحلة الحرية الكاملة في انتقال الصورة والأفكار والمعلومات والإتجاهات والقيم والأذواق على الصعيد العالمي، وبأقل قدر من القيود والعراقيل والضوابط، مما أفقد الدول قدرتها على التحكم في تدفق

الأفكار والقناعات الفردية والجماعية فيما بين المجتمعات و الأجيال، فأصبحت الإنسانية تنظر إلى ذاتها ككتلة واحدة ذات مصير واحد[14].

ولعل من مظاهر هذا البروز المتزايد لمفهوم الهوية العالمية مقابل تهميش وانكماش الهويات الوطنية والثقافية للفرد، التهديدات والتأثيرات المتزايدة للشاشات الرقمية على اختلاف خصائصها التقنية، وتعدد اختصاصاتها الثقافية والترفيهية. حيث أصبحت ملاذا للعديد من الباحثين عن الآثار البصرية الفائقة، دون أن يرافق ذلك أي شكل من أشكال إعمال الفكر النقدي في ما يتعلق بسلوكات المشاهدة والإلتزام بضوابط القيم والأخلاق الاجتماعية للثقافات المحلية.

4- مخاطر الشبكات الاجتماعية الإلكترونية وخصائص الصور العنيفة:

يعتبر موقع "الفيسبوك" "Facebook" من أهم مواقع الشبكات الاجتماعية الإلكترونية على الأنترنات. حيث يضم أكثر من 400 مليون مستخدم، ولو كان دولة لكان الدولة الثالثة في العالم من حيث كثافة السكان بعد الهند والصين[15].

هذا ويقبل العديد من الطلبة والشباب والمثقفين على استخدام هذا الموقع كمتنفس اجتماعي جديد، يتقمصون من خلاله شخصيات سيبرنيّة تختلف عن شخصياتهم الحقيقية، ويخوضون علاقات صداقة وتعارف مع مئات الشبان مجهولي الهوية الحقيقية، فيتم نشر الصور العائلية والشخصية بالإضافة إلى صور أخرى مبتذلة وعنيفة ومتاحة للجميع، إذ كثيرا ما تحتوي الملفات الشخصية للأعضاء في موقع فيسبوك على صور لمخمورين، ولغة بذيئة.

بالإضافة إلى رسائل متبادلة تزخر بالتذمر من العمل والمدرسة والوالدين، حيث أن مؤثرات اللون و الصورة والصوت والضوء تساهم في إيجاد علاقة غير مستقرة مع هذه المحتويات، إذ تتراوح بين الانجذاب والملل، وبين الحماسة والتوجس، لأن ما تستهلكه هذه الفئة يجمع بين التواصل والعنف والإفادة والإمتاع، كما لا يخلو من الحذر من المفاجآت المتربصة، التي قد تجلب

أصدقاء وأحبّة حالت الجغرافيا والمسافات دون لقائهم، وقد تخلف في الوقت نفسه اعتداءات وانتهاكات للخصوصيات الشخصية ورموز الهوية الثقافية.

تساعد الهوية الثقافية على تمييز المجتمعات عن بعضها البعض، وهي الخاصية التي تؤكد على الصفة الإنسانية للبشر. ومن أقدم التعريفات وأكثرها شيوعا تعريف "إدوارد تايلور" الذي عرفها بأنها "كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف وغير ذلك من الإمكانات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع[16]."

إن ما توفر للإنسان اليوم من فضاءات اتصالية رحبة تسهم بصورة فاعلة في ترسيخ القيم الثقافية وبناء الحياة البشرية، يمكن أن تسهم بالقدر نفسه من الفاعلية في تشويه الكثير من الحقائق حول الآخرين بالتعتيم المتعمد على قضاياهم وابتزازهم والتشهير بهم، وتزييف الواقع وفق غايات وأهواء المستخدمين.

وذلك في إطار ما يعرف بالتجسيد الرقمي للذوات والهويات، وتحويل الشخصيات الإنسانية في غرف الحوار والدردشة إلى شخصيات معدلة تكنولوجيا، أو ما يسمى بذات سايبورغ "CyborgSelf". حيث توفر هذه الغرف وسطا ثقافيا مشتركا وموحدا يجمع إليه جميع البشر بصيغة شاملة، دون اعتبار لاختلاف الأديان والثقافات والجنسيات، ومن خلال المفهوم الجديد للهوية الرقمية عبر الشبكات الحوارية الإلكترونية، يغدو مفهوم الهوية أكثر تعقيدا وغموضا، إذ تزداد خصائص الشخصية الإلكترونية كما وكيفا.

إن هذا الفضاء أتاح للإنسان إطارا واسعا يحوي أطرا فرعية كثيرة، فهناك الإطار الذاتي للشخصية "Self-domain"، وهناك إطار الجماعة أو المجتمع الافتراضي الذي ينتمي إليه، بالإضافة إلى الإطار الثقافي الطبيعي الذي يختزن معظم الطاقات التمثلية الرقمية للفرد[17].

تتنقل الذات الافتراضية في واقع رقمي متغير، في حالة بين الظهور والتخفي، وبقدر ما يمكن أن تكون تفاعلاتها مع الآخرين على درجة كبيرة من الوضوح والجلاء من خلال تحررها في التعبير عن الرغبات والمواقف والهواجس والمخاوف، فإن استخدام القناع الرقمي في الحوارات الإلكترونية يمكن أن ينشىء أنماطا مختلفة من العلاقات الاجتماعية، يغيب فيها التعامل الصادق بين الأفراد الأمر الذي قد ينجم عنه في أحيان كثيرة انعدام الثقة بين الأشخاص، الذين يرغمون على أدوار مركبة تحد من كفاءتهم الاتصالية وثقتهم بأنفسهم.

حيث يجد المستخدمون في الشبكات الاجتماعية الإلكترونية إطارا مناسبا للتعريف بأنفسهم وتقديم آرائهم وأفكارهم، ولكن غالبا ما يتم هذا الأمر بصورة مثالية مبالغ فيها، حيث يعمد هؤلاء إلى تأدية أدوار تظهرهم أكثر جاذبية، لأنهم في معظم الأحيان لا يريدون أن يُروا بما لا يرغبون في هيئتهم وكلامهم ورغباتهم وبقية تفاصيل شؤونهم العامة والخاصة.

إن استخدام المتحاورين لأشكال الرموز والصور الرقمية والأسماء المستعارة، يمكن أن يستغل بصورة سيئة تجاه الآخرين الباحثين عن علاقات اجتماعية قد يكونون محرومين منها في العالم الطبيعي، وذلك بالرغم مما يمكن أن تعكسه هذه المحاورات من جاذبية وأهمية في إبراز الحضور الشخصي للهوية الرقمية المنشودة.

ومن هنا تظهر نوعيات جديدة من العلاقات لم تكن معروفة في المجتمع، ترتكز أساسا على تأثير المتخيل الصوري، وهو ما يجرّنا إلى الحديث عن التصورات الخاطئة السائدة عن مفهوم الصداقة لدى مستخدمي الأنترنات بصورة عامة، ولدى مشتركي الشبكات الحوارية بصورة خاصة، إذ بمجرد قبول طلب انضمام شخص ما إلى مجموعة الحوار في إحدى غرف الدردشة، تبدأ علاقة صداقة وهمية تقنع وتشدّ المتصفحين إليها وتمكنهم من الإطلاع على أسرار ذلك الشخص وأنشطته وصوره الخاصة جدّا، وهو ما يفتح المجال لأشكال جديدة من الجرائم الإلكترونية، من قبيل انتحال الشخصية واستخدام الهويات المخفية بطريقة

غير شرعية، والتغرير ببعض صغار السن من مستخدمي هذه الشبكات، إضافة إلى ممارسة أعمال التشهير والتشويه من خلال استغلال بعض الحوارات لاستخلاص المعلومات والصور الشخصية ونشرها بهدف الإساءة إلى أصحابها.

إن الصورة الرقمية التي تتسابق الشاشات والمواقع الإلكترونية على تصنيعها وأدلجة محتوياتها، قد تحولت من خلال شبكات التواصل الاجتماعي إلى لغة بصرية مستقلة توظفها الفئات الشبابية للتعبير عن آرائها واقتحام جميع المجالات الإبداعية البشرية واختراق كل الحصون الثقافية والسياسية التي كانت حتى زمن قريب في خانة المقدس والممنوع والمحضور، وذلك بعد تحررها وتمكنها من الإفصاح عن ذاتها بلغة صورية مكتنزة بالدلالات وأشكال التعبير الفوري والحر، بعد أن استطاعت أن تنشر جوانب ثقافية وترفيهية مغرية وجذابة بأساليب يسيرة وسهلة الاستقبال.

ولكن كل ذلك لا يخفي تطبيع هذه الفضاءات الالكترونية الجديدة مع صور مصنعة شديدة العدوانية، ومشاهد حافلة بالإثارة والعنف. وبذلك يتحول إيقاع الشاشة وحركتها إلى محدد غير مباشر لاهتمامات الذهن وموجه خفي للسلوك تجاه قضايا واقع مستتر تملؤه المؤثرات والخدع البصرية التي لا بديل عن التعاطي مع مستجداتها واشكالياتها المستحدثة والاستعداد لتقييم نتائجها.

❖ **هوامش البحث**

(1) Erving Goffman, Alain Kihm, les rites d'interaction, les éditions de minuit, 1974 p : 34.

(2) برهان غليون، سمير أمين، **ثقافة العولمة وعولمة الثقافة**، دار الفكر، حوار القرن الجديد، بيروت، 1999، ص 35.

(3) Mechel stora ;violence a l'écran .conférence débat .17avril 2004.centre social rural intercommunal .la chalp .05470 ALGUILLES en Queyras .http ://www génération cyb .net/ violence a l'écran .Queyras .@ wanadoo.tr .26-04-2010.

(4) Ibid.

(5) حميدة مخلوف، سلطة الصورة : بحث في إيديولوجيا الصورة وصورة الإيديولوجيا، دار سحر للنشر، الطبعة الاولى، تونس، 2004، ص28.

(6) شاكر عبد الحميد، نعيش عصر الصورة و ثقافة الاستهلاك، صحيفة الوسط الالكترونية، العدد:2351 البحرين، فيفري 2009، 22-04-2010،

http://www.alwasatnews-com/2351/news/read/37029 .html

(7) عبد الله بلقزيز، العولمة و الهوية و ثقافة الاستهلاك، العرب و العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت 1998 ،ص 15.

(8) حميدة مخلوف ،مرجع سابق ،ص 10.

(9) Serge Tisseron, images violentes ,violence des images, Université Paris X Nanterre http://www.rcq.gouv.qc.ca/chroniques-études.0.5p?id=139,26-04-2010.

(10) Ibid.

(11) حميدة مخلوف، مرجع سبق ذكره، ص7.

(12) حميدة مخلوف، مرجع سبق ذكره، ص 72-73.

(13) عبد الخالق عبد الله، العولمة جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها، مجلة عالم الفكر، عدد 02، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر- ديسمبر، 1999، ص 76.

(14) المرجع السابق، ص ص 67-77.

(15) رشا عبد الله، مواقع الشبكات الاجتماعية بين الخصوصية والحرية، كتاب العربي، الثقافة العربية في ظل وسائط الإتصال الحديثة، الجزء الأول، الكويت، 2010، ص164.

(16) كامل أبو صقر، العولمة التجارية والإدارية والقانونية، دار الوسام ودار مكتبة الهلال، بيروت، 2000،ص380.

(17) علي محمد رحومة، علم الاجتماع الآلي، مقاربة في علم الإجتماع العربي والإتصال عبر الحاسوب، سلسلة عالم المعرفة عدد 347، الكويت، 2008، ص 136.